في وضعنا الفكري الراهن

# ثورة الإبداع والثقافة

بقلم مطاع صفدي

يعيش العرب في هذه الحقبة من الاحداث الفاصلة موقفا فذا ، ليس فقط بالنسبة لتاريخهم السياسي ، ولكن بالنسبة كذلك لمولد الانسان العربي الجديد . ان هذا الموقف يضع العقل العربي تجاه اعمق مسؤولية له . فهو مدعو من جهة الى الكشف عن عناصر الامكانية الخام في وجودنا. وهو مدعو ايضا الى كشف ذاته بما يكشف خارجا عنه . هذا العقل لم يولد بعد . لقد سبقه الفعل ، الفعل الضخم الجبار يملأ ابعاد الواقع المعاش من قبل الجماهير الثائرة ، وهو عندما يولد فانما تولد معه امكانية حياة اخرى للانسان العربي . فهل الانسان العربي ما زال فكرة ، مجرد حماسي مثالي ، مجرد افق ينسجه الحنين الى البعيد الذي يلغي ما هو قريب ويزيل مسؤولية الحاضر المباشر .

ان الاحداث ترسم الواقع ولا تنتظر العقل . ولكن الى اي حد يمكن ان تبقى الاحداث تجري لغاياتها العفوية دون ان يستطيع العقل شيئا ازاءها .. اليس للعقل من عمل الا ان يوضح معنى ما يحدث، ما يقع ، ما يملأ ابعاد الحياة اليومية للجماهير ، اليس له كذلك ان يبرز معنى ما يجب ان يقع ، ما يجب ان يحدث ، اليس للعقل هذه الوظيفة المثالية الخلاقة وهي ان يضع مخطط المستقبل ، ان يستبق الحادث ليوجهه ، ليحصل منه اكبر النتائج ، ليقسره على ان يكون كما تشاء ارادة الانسان الخالق .

نحن نستطيع ان نجزم بسرعة ان الثورة العربية ، الثورة التي تطفح الان من جميع تفاصيل واقعنا اليومي والعاطفي والذهني ، انما هي ثورة بنت المجهول ، انها ربيبة قدر عميق جبار يصعد من خلفية هذه الامة ، بل من اعماقها ، ونحن لا نملك ازاءه الا الدهشة وشيئا من القلق ، وشيئا من التساؤل : انحن صنعنا كل هذا !

من هم المفكرون الذين تنبأوا ودعوا الى ( هذا ) قبل ان يكون ، من هم الانبياء الذين بشروا بهذا العالم الافضل ، من هم الابطال الذين صنعوا تاريخنا قبل ان يصنعهم التاريخ.

ومع هذا فان حدث الثورة ، حدث الوحدة هذه بكل عناصرها الخفية التي لم تكشف كنوزها الانسانية بعد ، جاء بحقيقة جديدة حتى على اصحابها ، حتى على ابطالها ... انها فذة ، لا مثيل لها ، لا تصور لها سابق على وجودها ، لا بهرجة مصطنعة قبلها ، حولها ، بعدها . انها هي ... حقيقة الثورة التي نحيا ولا نعي ، ننفذ ولا نقدر ، نخلق ولا نعرف وجه ما نخلق ..

علينا اذن ان نعكس الاية قليلا : فلنفكر ونخطط لنبقي الثورة ثورة ، ولنجعل من مستقبلنا بناء يتجاوز مخططنا دائما . اننا مطالبون اليوم بان نؤجج اكثر فأكثر واعنف فأعنف من جحيم البركان ، يقذف بحجمه ، مخربا هنا ، بناء هناك ، محرقا هنا ، منيرا هناك . يجب ان تبقى النار نارا، ولكن يجب كذلك ان نمسك بصخورها المحترقة بايدينا لنرتبها في البناء اللاهب الذي تتحفز له حياتنا الضامرة منذ مئات السنين .

وبالفعل ، فان كل خطوة ايجابية حققتها ثورية الوحدة ، كانت في الوقت ذاته خطوة سلبية ضد عناصر التجزيئية، كالشجرة المارة التي يضعها الربيع الجديد، كلما مدت لها جذرا في الارض العميقة ، كلما تخرب وتفتت جذر هرم نخر امام قوته .

ومن هنا جاءت ثورية اخرى ، هي ثورية العقل والثقافة ان حاجتنا الى الثورية الثقافية تشبه حاجة الانسان الى العلم كيما يسيطر على الطبيعة بالعلم والصناعة . ونحن نريد هذا العقل ، لا لنسيطر على ثوريتنا العامة العظيمة. ولكن لنجعلها اولا مبدأ لوجود وفلسفة دائمة لحياة ، ولنشتق منها ثانيا اعظم النتائج ليس في ميدان السياسة فحسب ، ولكن في ميدان التفكير ، الابداع الفني ، الابداع العلمي ، الانشاء الصناعي ، وحتى في ميدان النفس والعاطفة والعلاقات الانسانية في شتى مستويات الفعالية الاجتماعية والفردية .

وكل ثورة لا تصل الى هذه الجذور ، انما هي ثورة عابرة سطحية . وما كان لفئة ان تمد بالثورة الوحدوية الى كل هذه الافاق والابعاد . ولذلك كان الشعب كله مسؤولا عن ثورته كلها . انه لن ينتظر من بضعة افراد ان يقدموا له المعجزات وهو ساكن سادر ، جسده خامل خمول عصر التجزئة والذل ، وخياله المريض يصعق للبطولات ، لبطولات غيره .

ومن العجيب حقا ان يخيل لبعض الناس انهم ليسوا الا مجرد ترقب وانتظار لان تنزل عليهم الخيرات من اعلى. لقد اتوا مثلا بعبد الناصر فلماذا لا تتحقق الجنة في صباح الغد !

حاجتنا الى الثقافة الثورية لنقتلع اذن عقلية الايمان بالمعجزات ، عقلية السحر ، عقلية علاء الدين والفانوس السحري .

ومن العجيب حقا ان يخيل لبعض اخر من الناس انهم

يمكنهم ان يبقوا على كهوفهم وجحورهم المصلحية والانانية والحربائية بمجرد ان يغيروا من عناوين هذه الكهوف ، كما تغير الصحف من اسمائها وتبقى هي هي بتجارتها بالكلمة والمعنى واللفظ الكبير والمبدأ المسؤول .

حاجتنا الى الثقافة الثورية لنهدم اذن الكهوف والجحور على اصحابها ونطمر اثامهم الماضية تحت صمت التراب .

ان ثورية الثقافة تنبعث عن ثورية العقيدة بالحياة الجديدة ، بالسيادة الصحيحة التي تنحتها كرامات الرجال من صخر الاحداث . وعقيدتنا ليست تفكيرا محنطا على الورق ، وليست محاضرات تلقى على الكسالى من اللاهين العابثين ، وليست بطاقات مجانية للوصول الى كراسي الحكم والتحكم ، انها العقيدة التي تسيطر على الطبيعة فتجعلها مصانع ومدافن ، وتسيطر على المجتمع فتمنحه الشخصية والحرية والقيمة ، وتسيطر على الفرد فترفعه الى مستوى البطل ، في عهد الابطال .

انها العقيدة التي تجعل من حياة العرب ، ومن تاريخهم الى الابد ، ثورة مستمرة متفاعلة تتخطى انتاجها وتعلو على مخلوقاتها، الى ماهو اعظم واعمق جذرا في الوجود الحضاري!

وانها العقيدة التي تجعل من كل فرد عربي ، اليوم وغدا، في جيلنا وفي اجيال النازلين منا، تجعل كل فرد عربي هو عبد الناصر ، عبد الناصر الثائر ، عبد الناصر الذي يحل دين الانسان والحياة محل دين الاصنام والموت، عبد الناصر الفاتح ناسف الحدود ، ليس بين عرب وعرب .. هو ناسف الحدود بين الفكر والعمل ، بين نيتي وتحسري وبين اقدامي وهجومي، بين مثالي وبين واقعي ، بين الهي وبين انساني ، بين ارادتي وبين قدري .

عندما خلقت ارادة الامة العربية ونفذها عبد الناصر ، مات المستحيل !.. وكما كانت ثورتنا شبه مستحيل ، كان اشباح العباقرة واشباه الكتاب والمفكرين يعتقدون ان ثقافتنا العربية لن تكون ، وعبقريتنا ليست الا وهما وشبه جنون ..

كانت تلزمنا الحياة ، كما يلزم الارض الربيع . وكانت تنقصنا الثقة ، والشخصية والقدرة على الوجود . كانت تنقصنا الجرأة لان نكون . وها نحن اولاء نمتلك فجر حياتنا ، صميم وجودنا ، نحقق جرأتنا بفتح ظافر في تاريخ العرب والعالم معا .. والثقافة بعد ما هي الا ان نعي ماذا نفعل وماذا نريد ان نفعل . وعندئذ تكون ثقافتنا حقا هي عقيدتنا . وتكون عقيدتنا سلسلة من الفتوحات بالمعنى والفكر ، كما بالفعل والسياسة .

فلنع اذن بطولتنا الجديدة هذه ، ولنعش ما نعي ، كما وعينا ما عشنا . ولنفسح مجالا لثقة اخرى ببطولة ناصرية اخرى في الثقافة العربية العقائدية .

هذا هو شعارنا الاخر : ثقافة ترتفع الى مستوى الجمهورية العربية المتحدة . ثقافة تكون عقل الجمهورية ، كما كان عبد الناصر سيفها وصانع تاريخها .

**مطاع صفدي**


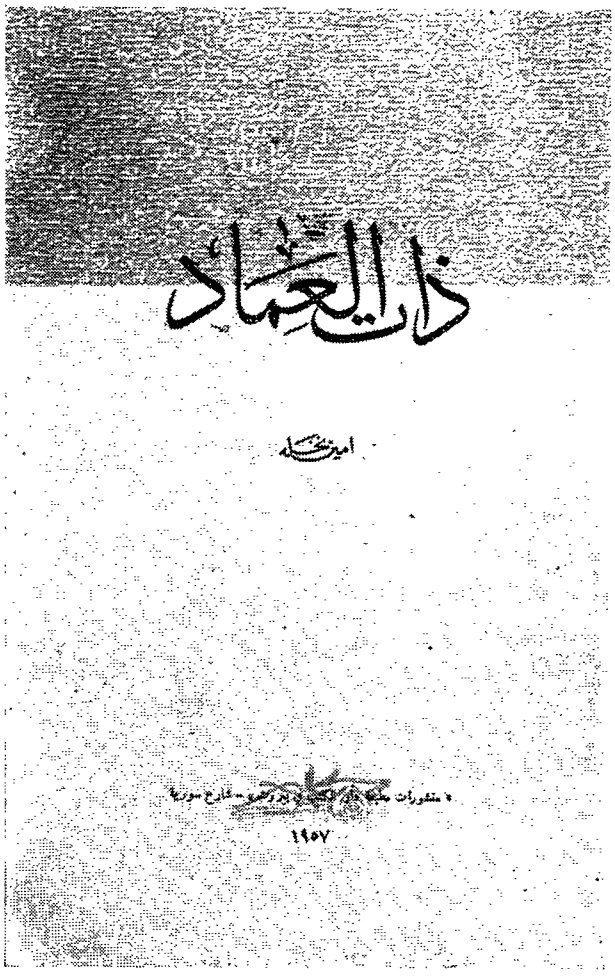


**يدور على المسائل الخلافية في الادب ، وعلى الدقائق اللبنانية في اللغة ، وعلى ما مجد به لبنان في « الحديث » وفي «الاثار » ، وفي الادب العربي القديم ،**

ملتزم التوزيع

**دار الثقافة - بيروت**